سلسلة 6
... ما بأنفسهم؟

صِبْغَةُ اللَّهِ

تأليف الدكتور
محمد بن موسى بابا عمي

مكتب الدراسات العلمية

الدكتور محمّد موسى باباعمي
مكتبة المناهج

صبغة الله

the Sibghah (Religion) of Allâh

تأليف

الدكتور محمد بن موسى باباعمي
مكتب الدراسات العلمية

رمضان 1426هـ / أكتوبر 2005م

مكتب الدراسات العلمية

الحميز، الدار البيضاء

غايتنا

رضا الله تعالى

رسالتنا

التغيير في المنهج، من منطلق قرآني

تنبيه

الدين نظام إلهي شامل، حمله الأنبياء إلى البشرية جمعاء، بغرض تحقيق السعادة في الدنيا، والعاقبةِ الحسنة في الآخرة...

فكلُّ دين، ما لم يحرَّف، هو صلاح مطلق وخير عميم؛ وكلُّ ما ناقض الدين، من أفكار ونظريات، هو فساد مطلق وضلال مبين...

فانظر إلى حياتك، أيها القارئ العزيز الكريم، وتأمَّل حركتك وسكونك، وشغلك وفراغك، وقولك وعملك... واسأل نفسك بصراحة، مستعينا بفقرات هذا الكتاب:

هل كلُّ أولئك مصبوغ بصبغة الله؟

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف تقرأ هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب للمطالعة، ولا للاستزادة من المعارف العامَّة، ولكنَّة أداةٌ ووسيلةٌ للعمل والتغيير، في العديد من مجالات الحياة، وبالتالي، فإنَّ المؤلِّف ينصحك، أيها القارئ، بما يلي:

■ **أن تطالع الكتاب بغرض تطبيقه في حياتك اليومية**، وعليك أن تحاول إسقاط كلِّ معلومة على أفكارك ونشاطاتك، وتقرأ من خلالها حركاتِك وسكناتك، وتحلِّل على ضوئها عواطفك ومخطَّطاتك...

■ **كلَّما استوعبتَ فكرة من الكتاب حاول أن تبلِّغها لمن حولك**: الزوجةَ أو الزوج، والأولادَ أو الوالدين، والأصدقاءَ، والأجراءَ، والمديرين، والطلبةَ، والمتعلِّمين... فإنَّ أفضل طريقة لاستيعاب ما تتعلَّمه هي: **الإنفاق منه، وتعليمه لمن لا يعلمه.**

■ حاول أن تطبِّق أحسن ما يرِد في هذا الكتاب على عملك الاجتماعي، خطوة بخطوة، وفكرة بفكرة؛ **واعلم أنَّ التغيير لا يولَد في يوم واحد، ولا يكون طفرة، بل هو نتاج صبر ومصابرة، وجهاد ومجاهدة...**

■ طالع هذا الكتاب وأنت تحمل في طياتك روحًا ناقدة، علَّك تعدِّل خطأً وقعنا فيه، أو تضيف معلومة جديدة، أو تؤسس طرحا أعمق وأكثر فاعلية.

■ لا تتردَّد في حمل قلم الرصاص، أو القلم الكاشف *"textmarker"*، قصد تسطير ما ينبغي تسطيره، والتعليق على ما يلزم التعليق عليه، **فتعامَل مع هذا الكتاب بأريحية وجرأة، لا بتقدير وتبجيل.**

■ أتْل القرآن الكريم، وادرُس الحديث النبويَّ الشريف، وتمتَّع بالسيرة العطِرة،

وبالتاريخ، والفلسفة، والفكر، وسائر العلوم النظرية والتطبيقية... **محاولا إسقاط ما تطالع على القواعد الواردة في هذا الكتاب، قصد توسيع آفاق الفهم والإدراك عندك، وضمان استفادة أكثر من هذا الكتاب، ومماً تطالع في آن واحد.**

د. محمد موسى بابا عمي

رمضان 1426هـ أكتوبر 2005م

وعي الذات

هل أنت راض عن نفسك، مطمئنٌّ بها؟

أم أنَّك ساخط عنها، قلق إزاءها؟

تتراوح أجوبة الناس على هذا السؤال العميق، ما بين متفائل إلى حدِّ الفرح والغرور، ومتشائم إلى حدِّ اليأس والقنوط.

فما معنى تقدير الذات؟

يعرِّفها البعض بأنَّها: «الميل إلى النظر إلى الذات على أنَّها قادرة على التغلُّب على تحديات الحياة، وأنَّها تستحقُّ النجاح والسعادة» وهي كذلك: «الشعور بالرضا، الذي ينشأ عند الفرد، نتيجة تلبية حاجاته».

ووسائل تقدير الذات هي:

* **القلب**: وهو محلُّ الشعور، والإحساس بالأهمية والرضا والطمأنينة.

* **العقل**: وهو الذي يقيِّم أداء الفرد ويثمِّنه، وذلك بالتمييز بين الإيجابيات قصد تنميتها، والسلبيات لغرض تصحيحها.

* **اللسان**: الذي يذكر ما في النفس، ويتكلَّم عنها بما يليق.

* **الجوارح**: تقديرها للذات يتحقَّق باستعمالها وتوجيهها إلى ما خُلقت له، وعدم إذايتها والحطِّ من قيمتها.

تمرين عملي:

سجِّل، بعد تأمُّل، نسبة الرضا عن نفسك؟

٪.....

وثلاثة أسباب تجعلك ترضى عن نفسك؟

.....
.....
.....

وثلاثة أسباب تسبِّب في سخطك عنها؟

.....
.....
.....

بناء على الأجوبة، أعد تقييم نفسك من جديد، بوضع مخطَّط واضح لها، يتحوَّل بالعمل والمثابرة إلى قوَّة موجِّهة للسلوك. في شتَّى مناحي الحياة: الإيمانية، والنفسية، والعائلية، والاجتماعية، والاقتصادية، والجمالية ... الخ.

قياس الأعمال

كلٌّ يعمل على شاكلته، وعلى طريقته ومذهبه، وبالصورة التي يختارها لنفسه في حركاته وسكناته، وفي كسبه لِقُوته، وفي معاشرته لمن حوله، وفي نفعه وضرِّه؛ فلا أحد يقهر أحداً على عمل لا يريده، إلاَّ إذا كان عبداً غير حرٍّ...

فأنت أيها الإنسان تحقِّق معنى الحرية، ومعنى الإرادة، إذا عملت ما تراه حسنا، وتخلَّيت عمَّا تعتقده سيئا.

ولكن، ما هو المقياس الذي تميِّز به بين الفعل الحسن والفعل القبيح؟

هل هو الرضا القلبي؟

أم هو المردود الماديُّ؟

أم هو ما تقييم الناس ورأيهم؟

أم هي اعتبارات أخرى غير هذه؟

فما هو المقياس الدقيق لعملك؟

للإجابة على هذه التساؤلات، صارِح نفسك، وانظر: متى تُقدِم، ومتى تُحجِم؟ وما هي تصرُّفاتك تجاه نتائج الأعمال؟ وما هي الكلمات والألفاظ التي تستعملها في حياتك اليومية للتعبير عن الرضا والسخط، وعن القبول والرفض؟

إذا كنت تعيش — مثلا — على إيقاع ما يقوله الناس عنك: تلبس ما يحبُّون، وتأكل مماَّ يفضِّلون، وتبرمج وقتك كما يريدون... فإذا رضوا أقدمتَ، وإن سخطوا أحجمتَ، وهمُّك المقيم المقعِد: **هو ما يقوله الناس**.

إذا كنتَ كذلك، فلا شكَّ أنَّ مقياس عملك ونجاحك هو رضا الناس.

وقِس على ذلك ما يدرُّ المال، فما كان بمقابل ماديٍّ تنشط في إنجازه، وما لم يكن كذلك تعزف عن إتيانه.

فاعلم – أخي – أنَّ كلَّ شيء ارتبط بعملك وجودا وعدما، فإن وجد عملتَ، وإن لم

ورهبانية ابتدعوها

الرهبانية تركٌ للعمل والاسترزاق، وتفرُّغٌ للعبادة والنسك، وهي مما ابتدعه النصارى في تاريخهم الديني المحرَّف، وليست من صلب الديانة المسيحيَّة، بل هي من جملة التحريفات التي مسَّت العهدين القديم والجديد.

ففي العهد القديم اعتُبر "**العمل لعنة**"، وأمَّا في العهد الجديد، فنقرأ عبارة: «**لا تهتمُّوا لمعيشتكم، بشأن ما تأكلون وما تشربون، ولا لأجسادكم بشأن ما تكتسون... لا تهتمُّوا بأمر الغد، فإنَّ الغد يهتمُّ بأمر نفسه، يكفي كلَّ يوم ما فيه من سوء**».

ومعنى "ما كتبناها عليهم": ما تعبَّدناهم بها، وهي من البدع التي حدثت في الأمَّة الإسلامية، وكانت من أسباب انحطاطها، وعجزها عن عمارة الأرض، والتمكين لدين الله تعالى.

وقد عدَّ الإمام الشاطبي العمل على الرهبانية المنفية في الآية القرآنية، والمنهيِّ عنها في الأحاديث النبوية، بدعة من البدع الحقيقية، لا الإضافية. وتزداد خطورة هذه البدعة وحرمتها في مثل عصرنا، الذي يشهد ذلَّ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وعجزهم عن توفير أدنى أسباب العيش،

وبقائهم في موقف المتفرِّج المنهزم في المدرَّجات، بعيدا عن الحلبة والمغالبة والنصرة والمدافعة.

والحلُّ في هذا الشأن أن يعبد الله تعالى كما يريد ويشاء، وكما أمر في كتابه الكريم، لا كما نريد ونشاء، وأن ينظر إلى العبادة في أوسع معانيها، وتعتبر فيها **صبغة الله تعالى**.. فكلُّ عمل واجب أو مندوب أو مباح صبغ بصَبغة الله تعالى، فهو لله تعالى... وكلُّ عمل، حتى وإن كان واجبا شرعا، لم يصبغ بصبغة الله تعالى، فهو لغير الله تعالى.

قال الرسول ص: «**إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى، فمن**

كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيًا يصيبها، أو إلى امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فلتكن صلاتنا وصيامنا، وقيامنا وركوعنا، وضربنا في الأرض واسترزاقنا، ومنامنا ويقظتنا، وكلامنا وسكوتنا، ومطعمنا وملبسنا... وكلُّ عمل نأتيه، وكلُّ فعل نذره، نيتنا فيه مرضاة الله ورسوله، مصبوغا بصبغة الله تعالى، فإذا فعلنا فُزنا بالدارين، ونلنا الحسنيين.

ومن أحسن من الله صبغة

ورد مصطلح الصبغة في آية واحدة في كامل القرآن الكريم، ففي سورة البقرة نقرأ قوله تعالى في معرض الحوار والجدال مع النصارى: ﴿**صبغةَ الله، ومن أحسنُ من الله صبغة، ونحن له عابدون**﴾

وقد اختُلف في تفسير معنى الصبغة في هذه الآية، ففسرها البعض **بالدين**؛ وقال آخرون هي: **الفطرة**. والحاصل أنَّ الفطرة مرادفة للدين، وإنَّما الكفر والشرك انحراف عن الفطرة، لقول الرسول صلى الله عليه وسلَّم: «**يولد الولد على الفطرة، فأبواه ينصِّرانه أو يهوِّدانه أو يمجِّسانه**».

Font كبير

وسبب نزول الآية أنَّ «النصارى، كانت إذا أرادت أن تنصِّر أطفالهم جعلتهم في ماء لهم، تزعم أنَّ ذلك تقديس، بمنـزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنَّـه صبغة لهم في النصرانية» وهذا يسمَّى بالتعميد.

فبيَّن الله تعالى أنَّ صبغة الإسلام ليست مادية، وإنما هي روحية إيمانية، وهي صبغة الله تعالى، والإيمان به، واليقين فيه؛ ولا أحسن من هذه الصبغة الربَّانية.

العبادة والصبغة

يلخِّص معنى الصبغة مصطلحُ العبادة، كما جاء به القرآن الكريم والسنَّة الشريفة، فأنت مصبوغ بصبغة الله إذا كنت عابدا له دون سواه، وأمَّا إذا لم تكن كذلك فلست مصبوغا بصبغته تعالى.

والعبادة هنا لا تقتصر على العبادات والشعائر فقط، وإنَّما تتجاوزها إلى أفعال البرِّ كلِّها، كما بيَّنتها الآيات الحكيمة، والأحاديث العطرة.

فطلبُ العلم عبادة، والصلاةُ عبادة، والصومُ عبادة، وتعليمُ الناس عبادة،

والحياءُ عبادة، وقولُ الحقِّ عبادة، وإتقانُ العمل عبادة، والزراعةُ عبادة، والصناعةُ عبادة، والتجارةُ عبادة، وخدمةُ المرأة والرجل آل بيتهما عبادة، وإماطةُ الأذى من الطريق عبادة...

والإسلام وحدة متكاملة، لا يؤخذ مجزَّأ، ولا يُقبل مبتسرا، فليس ثمَّة شبه إيمان، ولا نصف إيمان، ولا تسعة أعشار من الإيمان، وإنَّما هو الإيمان كلُّه، أو لا إيمان.

وبالتالي فلا يعقل أن يكون المصلِّي سارقا، ولا الصائم كاذبا، ولا الحاجُّ رافثا،

ولا المستغفر سبَّاباً، ولا المتصدِّق مبذِّرا...

فإذا اجتمعت صفتان من هذه الصفات المتناقضة في شخص، فاعلم أنَّه منافق، يظهر ما لا يبطن، ويفعل ما لا يعتقد.

هل سبق لك يوما أن سألت نفسك: تُرى لماذا فُرضت سورة الفاتحة في كلِّ ركعة من الصلاة، وعلى المسلم أن يقرأها على الأقلِّ سبعة عشر مرَّة في اليوم؟

تُرى ما الحكمة من قول رسول الرحمة: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»، وما الحكمة من تسميته كلَّ ركعة لم يقرأ فيها بفاتحة: **خَداجًا**، أي هي ناقصة غير تامَّة؟

ذلك أنَّ الفاتحة هي السورة التي ترسِّخ معنى **صبغة الله تعالى في القلوب**، ولا يكون ذلك إلاَّ بالتكرار مع التدبُّر، وتمثُّل المعاني،

ومحاولة اكتشاف أسرارها، وإنزالها على الحياة اليومية، لتكون ميزانا ومقياسا لما قبلها، ووسيلة للتصحيح لما يأتي بعدها من أعمال ومشاغل.

فأعِد – أخي – قراءتها الآن، مع الجهر بها، وإسقاط كلِّ ذلك على الشأن الذي أنت فيه، والحال التي أنت عليها:

﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالَمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد، وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمتَ عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالِّين**﴾

فإذا فعلتَ وأنت صادق مع نفسك، غير كاذب على ذاتك، ولازمت هذه المعاني في كلِّ صلاة، وفي كلِّ ركعة، عمُر قلبك بالإيمان، وعشت في الحياة مطمئنا، وكنت يوم القيامة راضيا مرضيا.

وفي معنى الإخلاص يقول الدكتور محمد ناصر عن صاحب العلم: «ليس الشأن في كثرة العلم؛ وإنَّما الشأن في التوفيق الذي يصحب العلم، ولا يكون التوفيق إلاَّ لمن جعل تقوى الله زاده في سرِّه وعلانيته».

الزمن الصبغة

مصطلح "**الزمن الصبغة**" مصطلح جديد، وهو من صياغة الباحث في أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ: "**أصول البرمجة الزمنية في الفكر الإسلامي، مقارنة بالفكر الغربي**".

وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**﴾.

فيأتي نقيضا لمصطلح "**الأزمنة المهيمنة**" "***Les temps dominants***" الذي عرف به الغرب عبر تاريخه، سواء أكان الزمن المهيمن هو زمن العبادة والترهب، أم زمن العمل والإنتاج، أم زمن الترويح والمتع... ذلك أنَّ

الفكر الإسلامي لا يقرُّ هذه الهيمنة، ويعدُّها بدعة وفسادا في الحياة الإنسانية، ذلك أنَّ الحياة في جوهرها توازنٌ بين الروحي والعقلي والجسمي، وبين النفسي والعائلي والمجتمعي والإنساني...

فالزمن الصبغة له عدَّة خصائص أهمُّها:

- لا يعني وجوده انتفاء الأزمنة الأخرى.

- هو زمن ضابط للمنهج والتوجُّه، **وليس زمنا خاصًّا بموضوع معيَّن.**

- هو زمن كيفيٌّ بالأساس، ويكون كميا في حالات قليلة.

– هو من هداية الله تعالى للبشرية، الذي أنشأ الإنسان وضبط له أزمنته وأمكنته. فهو ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ﴿وَكُلّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

– هو زمن واحد لا يتغيَّر بتغيُّر الظروف والأحوال.

أمَّا تعريفه فهو:

الزمن الصبغة "الزمن الصبغة" هو زمن العبادة، عندما تعني العبادة أشمل معانيها ومدلولاتها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِي﴾.

أي «ليخضعوا ويتذلّلوا»، ومعنى العبادة في اللغة التذلُّل والانقياد»، وإدامة الفكر والذكر، وملازمة الصبر والشكر، مع كلِّ عمل يأتيه الإنسان طوعاً، أو يعترض له كرهاً، ليلاً أو نهاراً، سرًّا أو علانيَّة... ولا تقصر العبادة هنا على الأعمال التي تشغل حيِّزا زمنيًّا بارزا، مثل الصلاة وصلة الأرحام؛ لأنَّه لا يعقل أن يُؤمَر المسلم بقضاء يومه كلِّه في مصلاَّه ومسجده، أو متنقِّلا بين أهله ورحِمه. وحديث «***الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة***

الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» يركِّز هذا المعنى ويدعو إليه .

أمَّا المعادلة الرياضية التي توضِّح مفهوم الزمن الصبغة، وتعطي البرنامج الزمني بعدا رابعا، فتضفي عليه لونا مميزا، وهي:

البرنامج الزمني = الزمن الصبغة × زمن (الشعائر + العمل + النوم + الفراغ).

فكلُّ عمل سواء أكان شعيرة، أم عملا وظيفيا، أم نوما، أم فراغا، إذا صبغ بصبغة الله فهو لله، وكلُّ عمل لم يصبغ بصبغة الله فهو لغير الله، حتى وإن كان من قبيل الشعائر والعبادات.

التعميد بمقياس العصر

التعميد عند النصارى، يعني تنصير أطفالهم وجعلهم في ماء لهم، يزعمون أنَّ ذلك تقديس، بمنـزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنَّـه صبغة لهم في النصرانية.

وإنَّ من أنواع التعميد، في هذا العصر، فرضُ برنامج زمنيٍّ على الغير، بحيث لا يتلاءم مع مبادئه وقيمه، ولا مع فطرته وسكينته. والعبرةُ في فهم القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ذلك أنَّ الغرب فرض على دول العالم الثالث "برنامجا يوميا". و"منهجا للحياة"، و"أسلوبا للعيش"، يقوم على أساس ماديٍّ

محض، يعطي الأولوية للوظيفة والمتعة، وكلِّ ما له مردود آني، ويلغي العبادة والإحسان، وكلَّ ما ليس له مردود آني.

فالتعميد بهذه الصفة نوع من الصبغة التي تضاد صبغة الله تعالى، وتزرع الشقاء في الدنيا، وعذاب الله تعالى وسخطه يوم القيامة.

فانظر إلى يومك، إن كان يبدأ بالاستيقاظ للفطور، ثم الوظيف، ثم الترويح بأنواعه: الرياضة، والتلفزيون، والسينما، ثم ينتهي بالنوم... ولا تعطي إلاَّ النزر اليسير للذكر والشكر، والإحسان وتلاوة القرآن، وكلِّ أعمال البرِّ والطاعة... فاعلم أنَّك حِدت عن الطريق، وانحرفت عن الجادَّة، وأنَّك في خطر وأمر مريج.

ويقيم الله تعالى مقارنة بين من اتبع رضوان الله، ومن أعرض عنه. فيقول:

﴿أفمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله، ومأواه جهنَّم، وبئس المصير﴾

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿أفمَن كان مؤمنا كمن كان فاسقا، لا يستوون﴾

ثم يضرب الله مثلا بمن زيِّن له سوء عمله، فأخطأ التقدير ورآه حسنا، فقال:

﴿أفمن زيِّن له سوء عمله فرآه حسَنا، فإنَّ الله يضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إنَّ الله عليم بما يصنعون﴾

يوجد لم تعمل، هو المقياس، وهو الغاية لعملك، حتى ولو كان كلامك وادعاؤك مخالفا لهذا.

فكن صريحا مع ذاتك، وعيِّن بوضوح مقياس عملك، والغاية منه؟

مقياس عملي هو

.....

.....

.....

لقوم يتفكّرون

أخطأ من ظنَّ أنَّ التفكُّر والتدبُّر والتأمُّل عملية صعبة، لا يقدر عليها إلاَّ العلماء والمجتهدون.

بل التفكُّر ممكن لكلِّ من له عقل، والتأمُّل سهل ميسَّر على كلِّ من له قلب، فما دام لك عقل وقلب فأنت إذن مطالَبٌ ومأمور باستعمالهما وتوظيفهما فيما خُلقا له.

ذلك أنَّ التفكُّر والتأمُّل حضور الذهن والقلب، في كلِّ شيء، ونفي الكسل عن العقل في البحث عن الأسباب والنتائج، واستخلاص العبر من كلِّ ما يمرُّ على السمع والبصر.

وهو أحسن وسيلة لصبغ الحياة بصبغة الله تعالى، والتوجُّه إليه سبحانه، وابتغاء مرضاته ورضاه، واكتشاف الحقيقة، ومعرفة الحقِّ معرفة يقينية.

أمَّا عدم التفكُّر فيسمِّيه القرآن الكريم غفلةً، وينهى عنه، ويحذِّر الغافلين بمصير أليم، قال تعالى:

﴿سأصرف عن آيتي الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحقِّ، وإن يروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغيِّ يتَّخذوه سبيلا، ذلك بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾

لا تعني عبادة الله تعالى، ولا الخضوعُ له، ولا مداومةُ الذكر والشكر، أن ينعزل المرء في زاوية من بيته، أو يأوي إلى كهف في شعاب الجبال، ويفرّ من الحياة ومن الناس، على شاكلة المعرِّي القائل:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصـــوَّت إنسان فكِدت أطير

بل على المسلم أن يخوض الحياة بما فيها، فيصلِّي ويصوم، ويعمل وينتج، ويرتاح وينام، ويتعب ويصبر... وتلك هي سنَّة الرسول عليه السلام، فمن رغب عن سنَّته

فليس من أتباعه.

ولنا في إبراهيم أسوة حسنة، إذ كان هو وابنه إسماعيل يرفعان القواعد من البيت، ويجدَّان ويجتهدان. غير أنَّ ذكر الله لم يغادر قلوبهما وألسنتهما، دون أن يتفرَّغا لذلك الذكر بالضرورة، يقول تعالى:

﴿وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ، ربَّنا تقبَّل منَّا إنَّك أنت السميع العليم، ربَّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرِّيتنا أمَّة مسلمة لك، وأرِنا مناسكنا وتُب علينا، إنَّك أنت التوَّاب الرحيم﴾

وقس على ذلك حياتك، فإن كنت طالب علم، أو تاجرا، أو حرفيا، أو موظفا... فأتقن ما أنت فيه، واجعل ديدنك ذكر الله قبل الشروع في العمل صباح كلِّ يوم، وذكر الله وقت العمل، وذكر الله بعد العمل... فالذكر لا يلغي الإجادة والإتقان، ولا ينفي التفوُّق والبروز... وهو مع ذلك يصبغ أعمالك بصبغة الله، ويجعلها مقبولة متقبَّلة، ويحوِّلها إلى عبادة متواصلة، واتصال بالله دائم.

تأمَّل حياتك ومسارها، وأعمالك ومآلها، وأيامك وجريانها... فستجد نفسك قد عشتَ برهة من الزمان، غير أنَّها مرَّت مسرعة كالبرق، وأنت تعيش اللحظة وقتا مهما بدا طويلا فإنَّه سينتهي... ولا تعرف في الأخير: متى ستبلغ المحطَّة؟ متى ستموت وتفنى؟ متى ستصير خبراً بعد عيان؟

البشرية جميعها متيقنة أنَّ الموت حقٌّ، وأنَّه لا مفرَّ منه: مؤمنُهم وملحدُهم، صغيرُهم وكبيرُهم، ذكرُهم وأنثاهُم، غنيُّهم وفقيرُهم، عالـمُهم وجاهلُهم... كلُّ الناس يعرف أنَّ من

عاش قبله قد مات، وبعضٌ ممَّن يرافقه اليوم يموت أمام ناظريه. ومن سيأتي بعده سيموت لا محالة.

فالعادة والروتين اليومي هما اللذان يحيلان الموت إلى نسيان، ويغريان المرء بالخلود...ولكن هيهات.

فقط من صبغ عقله وقلبه بصبغة الله تعالى. تجده دائم الفكر ودائم الذكر للموت. لا ينفكُّ عنه، ولا يتغافل، فيصبغ تبعا لذلك أقواله وأفعاله بصبغة الله تعالى، ويحيا حياة طيبة هنيئة سعيدة، ويرجو من الله تعالى يوم اللقاء أجرا وثوابا، وجنَّة ونعيما.

ولذلك كان ذكر الموت مستحبًّا في الشرع، ودليلا على التقوى والورع والإيمان.

بقول الرسول صلى الله عليه وسلَّم: "**أكثروا ذكر هادم اللذات: الموت**". ولقد كان الصحابة يقولون: "**ما أكثر أحدٌ ذكر الموت إلاَّ رُئي ذلك في عمله**"

وقد كان الفقهاء يصفون العلاج لمن طال أملُه وقلَّ عملُه بوجوب ذكر الموت؛ فإنَّ ذلك يصرفه إلى الاصطباغ بصبغة الله، والعمل الصالح لوجه الله، والرضا بقضاء الله، والخوف من عقاب الله تعالى.

ولذا، عليك أيها القارئ أن تسأل نفسك:

كم مرَّة أذكر الموت في يومي؟

أم أنَّني ممَّن يحاول دفعه عن قلبه وعقله، خوفا وخشية من مواجهة الحقِّ والحقيقة؟

وما مدى الاجتهاد في إصباغ يومي بصبغة الله تعالى، سواء بذكر الموت أم غيره؟

كن صريحا، وأجب عن السؤال بوضوح.

العمل الباطل

إنَّ المتأمِّل في ذكر مصطلح العمل في القرآن الكريم، يجده متصفا بجملة من المواصفات، باعتبار نوعه، أو مآله، أو قبوله... وقد ذكر العمل بمادته 360 مرَّة، ومن جملة هذه الصيغ: العمل الصالح، والعمل الباطل، والعمل المحبط، والعمل المقبول، والعمل المزيَّن، والعمل النعمَّا، والعمل البائس، والعمل السيء، وعمل الشيطان... الخ.

فكلَّما ذكر العمل الصالح أو ما يرادفه إلاَّ وجاء مقرونا بالإيمان، وكلَّما ذكر العمل الباطل والمحبط، إلاَّ وكان مقرونا بالكفر وبالشرك.

قال لي أحد الأصدقاء: لو تحسَّنت نيتنا لكانت ثمار أعمالنا جيدة ممتازة.

فقلت له: أعتقد أنَّ العبارة فيها خطأ، ذلك أنَّ النتائج والثمار مرتبطة بالإتقان والعلم والخبرة؛ أمَّا النية فتضمن القبول عند الله تعالى.

ورسمت له هذا الشكل:

العمل المتقن ← ثمارا جيدة

الإخلاص لله ← قبول العمل عند الله

العمل المتقن، بإخلاص ←

ثمارا جيدة، وقبولا عند الله.

وهذا ما يفسِّر أنَّ النتائج المادية الآنية يتحصَّل عليها المسلم والكافر على السواء، ويكفي في ذلك أن يكون صاحبها عالما وخبيرا بما يصنع، وأن يبذل الجهد في التحسين والتطوير.

غير أنَّ القبول لا يتحقَّق إلاَّ بشرط الإيمان، وابتغاء وجه الله تعالى؛ فكلُّ عمل خلا من النية، مهما كان قدره، فهو باطل ومحبط.

ولا أدلَّ على هذا المعنى من جهود بعض المنظَّمات الدولية، مثل منظَّمات الإغاثة، وأطبَّاء بلا حدود، وبعض الهيئات الخيرية

العالمية... فأعمالها، وإن بدت حسنة، لا تسوى شيئا في ميزان الله تعالى؛ وضلَّ من اعتقد أنَّ الله قد يغفر لمن عمل الخير، حتى وإن مات كافرا.

وفي هذا المعنى يصوِّر القرآن الكريم مشهدا يسهل على كلِّ إنسان إدراك مغزاه وأبعاده. فيقول:

﴿مثل الذين كفروا أعمالُهم كرمادٍ اشتدَّت به الريح، في يوم عاصفٍ، لا يقدرون ممَّا كسبوا على شيءٍ، ذلك هو الضلال البعيد﴾

ويفسِّر سيد قطب هذه الآية بقوله:

«ومشهد الرماد، تشتدُّ به الريح، في يوم

عاصف، مشهود معهود، يجسِّم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها، ولا الانتفاع به أصلا... هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار. فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان، ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله.. مفكَّكة كالهباء والرماد، لا قوام لها ولا نظام. فليس المعوَّل عليه هو العمل، ولكن باعث العمل».

غير أنَّ من تمام الإيمان أن لا نتَّخذ هذا المعنى مبرِّرا لتكريس الرداءة، والعجز، والجهل. وكلّ ما من شأنه أن لا ينتج نتاجاً

طيِّبا؛ ذلك أنَّ الله تعالى لا يأمرنا بالعمل وفقط، ولكن يأمرنا بابتغاء أحسن العمل، قال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كلِّ شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملا﴾

كسراب بقيعة

هذا مشهدٌ آخر لإحباط عمل الكفار بسبب كفرهم، وهو لا يقلُّ إثارة وبلاغة وتصويرا للمعنى من المشهد الأوَّل، ففي سورة النور نقرأ قوله تعالى:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة، يحسبه الظمآن ماء، حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد اللهَ عنده فوفَّاه حسابه، والله سريع الحساب﴾

ولنتخيل – سويًّا – صورة رجل انقطعت به السبل في صحراء مقفرة شاسعة، لا زرع فيها ولا ضرع، ولا كلأ ولا ماء، فأشرف على

الهلاك، وتملّكه اليأس من الحياة، فاستسلم للموت البطيء.. ثم فجأة رأى ماءً من بعيد، فنشطت أعضاؤه، واستعاد الأمل في نفسه، فأسرعت به رجلاه إلى حيث النجاة.. وما إن وصل إلى الماء حتى اكتشف أنه أخطأ التقدير، وأنَّ ما رآه سراب وليس ماء، وأنه هالك لا محالة..

ثم تنتقل آلة الكاميرا إلى مشهد آخر، أكثر هولا، وأعظم شأناً، إنَّه مشهد يوم القيامة، والرجل واقف بين يدي الله تعالى، يزن عمله فيوفِّيه له، ولا يبخسه شيئا، ومع ذلك لا يرجِّح كفَّةً، ولا يحقِّق سعادة.. بل يورث حسرة ونارا.

وما أروع الصورة التي نقرأها في "خزانة الأدب"، لتوالي اليأس عند الإنسان أوان الهلاك، ثم تحقُّق الحسرة بعد ذلك.. ننقلها هنا إمعانا في تجسيم إحباط عمل الكافر.

يقول القاضي شهاب الدين: «ما أمُّ طفل قذفها الزمنُ العنيدُ، في بعض البيد؛ في أرض موحشة المسالك، قليلة السالك؛ قد لمع صوابها، وتوقَّدت هضابها، وصرخ بُومها، ونفر ظليمها، وحضر سَمومها، وغاب نسيمها، فلمَّا خافت على ولدها من الظمأ والهلاك، أجلسته إلى جنب كثيب هناك، ثم ذهبت في طلب الماء للغلام، لئلا

يقضي عليه الأوام، فانتهى بها المسير إلى روضة وغدير وآثار مطي بوارك، تدلُّ على أنَّ الطريق هنالك، فعادت إلى ولدها مسرعة. وكلُّ أعضائها إليه عيون متطلِّعه، فلمَّا شارفت جنب الكثيب، رأت ولدها في فم الذيب».

وكلُّ كافر لا محالة على هذه الحال، وكلُّ مسلم بالاسم غير مؤمن بالفعل يصدق فيه هذا المثال؛ ولا ينفع إلاَّ الإيمان الحقُّ بالله تعالى.

وإذا ما أردنا أن نوظِّف الرياضيات لبيان هذا المعنى، فلا نجد أحسن من تمثيل العمل بالقيمة المطلقة. فمهما كان الرقم أكثر كانت

القيمة أكثر: /35/ < /23/

أمَّا القبول فيمثل بالإيجاب والسلب، إذ الإيجاب هو الإيمان، والسلب هو الكفر

+ 120 < + 1 < - 8964

فاحرص إذا كانت القيمة المطلقة لعملك كبيرة أن تشفعها بالإيجاب لا بالسلب، وادع الله دائما بما دعا به إبراهيم وإسماعيل ربهما: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم». وصدق الله القائل: «إنما يتقبل الله من المتقين».

صورة أخرى من صور إحباط عمل الكفَّار بسبب كفرهم، تلك التي يشبِّه الله تعالى فيها ذلك الجهد بالظلمات المركَّبة، فيقول جلَّ من قائل:

﴿أو كظلمات في بحرٍ لُجِّيٍّ، يغشاه موجٌ، من فوقه سحابٌ، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نورٍ﴾

فعمل الكافر وأمره مشبَّهان بالظلمات المركَّبة، بعضها فوق بعض، يجتمع على تثبيت سوادها كلٌّ من: البحر اللجي، والموج،

والسحاب... فلا أمل في تسرُّب شعاع من النور، ولا في بقاء بقعة من الضوء... حتى إنَّ يد المرء تختفي من ناظريه، ولا يراها، ولا يبصرها، وكأنَّها ليست منه...

والسؤال البدهي: من أين إذن نستقي النور؟ كيف السبيل إلى الخروج من هذه الظلمات؟

أمَّا الجواب فهو: بالرجوع إلى الله تعالى، وبالاصطباغ بصبغته، فالله تعالى هو خالق النور، وهو واهب النور، وهو الهادي إلى النور: «**ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور**».

أخي القارئ، راقب نفسك كلَّ طلوع شمس وكلَّ غروبها، وانظر هل هي ترعى في نور الله تعالى، أم أنَّها تدكُّ في ظلمات الشياطين والظالمين والمفسدين؟

والحكم سهل ميسَّر: إن كنت من المطيعين فأنت في نور الله تعالى، فاحمده واشكره وادعه الثبات والثواب.

وإن كنت من العصاة فأنت في الظلمات، فاحرص على التوبة والرجوع إلى حضيرة الإيمان.

العمل شكرا

يعدِّد الله تعالى النعم التي اختصَّ بها آل داوود، ففاقوا الأوَّلين والآخِرين، وجمعوا بين المُلك العظيم الذي لم يؤته أحد من بعدهم، وتسخير الجنِّ والشياطين، وإلانة الحديد، وفهم منطق الطير... وكان من الواجب عليهم أن يشكروا الله تعالى شكرا مميزا. ويتفنَّنوا في ذلك؛ ليكونوا قدوة لمن يأتي بعدهم، وليضمنوا دوام النعم عليهم وعلى ذرياتهم.

وليس أفضل من **العمل المصبوغ بصبغة الله تعالى**، والاجتهاد في عمارة الأرض نصرةً لدين الله تعالى، وتحقيقا لمدلول خلافة الله في الأرض.

والآية دليل أنَّ الشكر إنَّما يكون بالعمل، واستعمالِ النعمة فيما خلقت من أجله، أمَّا الحمد والشكر باللسان فهو جزء من الشكر، وليس هو جميع الشكر.

قال تعالى: ﴿**اعملوا آلَ داوود شكراً، وقليلٌ من عباديَ الشكور**﴾

يفسِّر الشيخ بيوض هذه الآية بقوله: «بمعنى: اعملوا بما أمرتكم به، من امتثال الأمر، واجتناب النهي، والتقرُّب إليَّ بما شرعته لكم».

ولينظر كلُّ واحد منَّا: هل يعمل ما يعمل ابتغاء مرضاة الله تعالى؟ أم يرجو وراءه مآرب أخرى؟

وهل يسعى للعمل الذي يؤسِّس للحضارة، وتحتاج إليه الأمَّة في الوقت الراهن، للخروج من أسباب التخلُّف والمهانة، إلى مظاهر الحضارة والعزَّة؟ أم أنَّه عابد، متنسِّك، متزهِّد... لا يغادر مصلاَّه، فلا يقدر على شيء، وهو عَنْ وعالة على الكفَّار... فلا ينتج مأكله ومشربه، ولا يخيط فراشه وملبسه، ولا يبني مسكنه ومتجره، ولا يصنع سيارته ومركبه... فُصاراه أن يستهلك ما ينتج غير المسلمين، ويدَّعي أنَّ ذلك من تسخير الله تعالى له، بسبب تقواه وورعه؟

فهذا - بحقِّ الله - مما نُهي عنه شرعا، والمأمور به يقينا هو العمل الصالح بجميع

أنواعه، وابتغاءُ رضا الله تعالى في كل عمل مهما صغُر أو كبُر: في الصلاة، والتربية، والصناعة، والتجارة، والسياسة، والترويح... وكلِّ مناحي الحياة الأخرى.

علم الكلام يعطّل العمل

مما ابتُليت به الأمّة الإسلامية في تاريخها الفكري ما يعرف **بعلم الكلام**، الذي أوغل في المسائل الخلافية، وأنتج تراثا ضخما من الكتب والردود والحواشي، في مسائل معيَّنة مثل: قدم القرآن وحدوثه، ورؤية الباري يوم القيامة، والعلاقة بين صفات الله تعالى وذاته...

فلو أنّنا سلّمنا جدلاً بأهمية هذه المباحث بالمنهج الذي طرحت به، وأنّها لازمة في تثبيت العقيدة، فكيف نفسِّر غيابها من القرآن الكريم؟ وكذا من السنّة الصحيحة المتواترة؟

ثم. أليس المطالبة بها تكليف بما لا يطاق؟

الحقُّ أنَّ العقيدةَ والتوحيدَ والإيمانَ قد اكتملا في القرآن الكريم موضوعا ومنهجا. فالمواضيع العقدية هي كلُّ ما جاء به القرآن وسنَّة المصطفى من مسائل العقيدة، والمنهج الصحيح والكامل هو منهج القرآن الكريم ومنهج محمَّد صلى الله عليه وسلَّم... ويكمن دور العلماء المسلمين في اكتشاف معالم هذا المنهج، وفي تمثُّله وتبليغه للعامَّة كما هو.

وما نقرأه في القرآن من أصول الإيمان – جميعه – يصبُّ في ملأ قلب الإنسان بالإيمان. ودفعه إلى العمل. وعدم الفصل بين

العلم الصحيح والعمل الصالح... **فصبغة الله تعالى تحقِّق للعبد كمالا بشريا، ومكانة عند الله عليَّة، ومآلا يوم القيامة مَرضِيا.**

ولننقل نصًّا نموذجيا من التراث الكلامي الجدلي، يقول فيه صاحبه: «إذن، فالله هو الجسم عند ابن تيمية. وتأمَّل عبارته الأخيرة فهي تحتوي مغالطة، وهي أنَّه نسب إلى كثير من المسلمين تسمية ما هو موجود بأنه جسم، والصحيح أنَّ هؤلاء لم يقولوا بذلك إلاَّ لأنهم يقولون إنَّ الأجسام هي الموجودات الوحيدة، فلذلك قالوا بأنَّ كلَّ موجود فهو جسم... الخ»

فلو أنَّك – أيها القارئ – صادفت هذا

النصَّ من التراث الكلامي، فماذا ستفهم منه؟ وهل سيورِّثك عملا؟

يقول العلاَّمة محمد الغزالي معلِّقا على الآثار السلبية لعلم الكلام في فكر الأمَّة: «وقد استقرَّت رواسب هذا الخلاف الطائش في أذهان العامَّة، ثمَّ سيطرت على سلوكهم بعدما أخذوا أسوأ ما فيها». فتجد اليوم عامَّة الناس تتحاور فيما لا علم لها به من مسائل الكلام، ويكفِّر بعضهم البعض تقليدا للعلماء، ويصدرون عناوين تحمل الكره والحقد، وتعجُّ بمعاني التكفير والتبديع، فتحوَّلت الأنترنات مثلا إلى حلبة للصراع والتفسيق، عوض أن تكون مجالا

للدعوة إلى الله تعالى، وجمع شمل المسلمين والتنسيق.

فضاعت صبغة الله من ثنايا هذا العلم، وغابت من أفعال المسلمين وحياتهم اليومية، فشقوا وأشقوا، وكانوا عالة على الكفار، وأذنابا للملحدين.

عمل الإنسان وعمل الآلة

لو سئلتَ يوما: ما الفرق بين عمل ينجزه الإنسان، وعمل تنجزه الآلة؟

مثل ملبس يخيطه الخياط بيديه، ونفس الملبس تخيطه الآلة كلية دون تدخل الإنسان.

لا شكَّ أنَّ الجواب التقليدي هو: أنَّ ما ينجزه الإنسان غالي الثمن؛ لأنَّه نسخة فريدة من نوعها، أمَّا نتاج الآلة فأرخص – عادة – لأنَّ له نسخا كثيرة.

لكن الجواب الذي نبحث عنه في مثل هذا الكتاب هو: أنَّ عمل الإنسان يتميَّز بكونه متعلقا بالغاية والنية والمقصد والهدف، أمَّا

الآلة فلا غاية لها، ولا نية، ولا مقصد، ولا هدف.

وبعبارة أخرى: عمل الإنسان يصبغ حتما **بصبغة إيجابية**، إذا كانت الغاية منه رضا الله تعالى، والنية عبادة الله، والمقصد تحقيق المنفعة والخير، والهدف ما يعود بالنفع للبلاد والعباد.

ويكون عمل الإنسان مصبوغا سلبا إذا كانت الغاية رضا غير الله، والنية فاسدة، والمقصد منحرفا، والهدف مشوشا.

فاحرص على أن تصبغ عملك بصبغة الله تسعَدْ في الدنيا والآخرة، وتُسعِد غيرك

بتوفيق من الله تعالى. وتكون متميزا لا عن الآلات فقط. بل عن كثير من العباد الذين لا يشكرون. قال تعالى: ﴿**وقليلٌ من عبادي الشَّكور**﴾.

ما أشبه اليوم بالبارحة

إنَّ من عادة السياسة – عندما تنحرف عن الجادة – أن تدجِّن الأمم، وتحارب كلَّ مبادرة قد تهدِّد مصير الساسة والحكَّام، وتنشر ثقافة الرخاء لتصرف القلوب عن المعالي، فتزرع ثقافة الحاجة والاحتياج، لتُذلَّ الناس وتهينهم... فنظرةٌ متأنية في العالَم العربي اليوم، تريك مساحة جغرافية كبيرة، لا حول لها ولا قوَّة، لا تملك أمر أمنِها، ولا قوتَ يومها، ولا قرار غدها... بها حكَّام محتكرون، ومحكومون مخذولون أمِّيون، يقولون "نعم" لكلِّ ناعق، ويقولون "لا" لكلِّ ناصح. إلاَّ من رحم الله، وقليل ما هم.

وليس هذا بالأمر الجديد، ولا بالمبتكر الوحيد. بل إنَّ الأمراء في القديم كانوا يتَّبعون نفس الأساليب والوسائل، لصرف الناس عن صبغة الله تعالى، وصبغهم بصبغة الشهوة والشهرة والهوى.

فهذا معاوية بن أبي سفيان، بعد اغتياله للسلطة من يد علي رضي الله عنه، «كان بالمدينة على عهده طائفة من الشباب المترَف، يخشى أن تشرئبَّ أعناقُهم إلى الخلافة، ويسوِّل لهم حبُّ الملك أن يكيدوا له، فقصرهم على سكن الحجاز، وحظر عليهم أن يغادروه إلاَّ بإذنه. ورأى من

الحزم أن يقيِّدهم بالإحسان، ويفيض عليهم جزيل العطاء، **ففرض لهم رواتب ضخمة من بيت المال**، كانت تتدفَّق عليهم من خزائن الشام، هذا إلى ما ورثوه من آبائهم الفاتحين من ثراء وافر، **ثمَّ هم بعد فارغون من العمل، متعطِّلون**».

وهكذا، أضاعت السياسة كلَّ معاني الهمَّة من شباب الأمَّة، وورَّثت هذا المنهج إلى ملوك العرب اليوم، وإلى أمرائهم، وهذا ما يفسِّر التخلُّف والاستكانة، والذلَّ والهوان.

«قل اللهمَّ مالكَ الملك، تؤتي الملكَ من تشاء، وتنزِع الملك ممَّن تشاء، وتعزُّ من

تشاء، وتذلُّ من تشاء، بيدك الخير، إنَّك على كلِّ شيء قدير».

أعِزَّنا اللهمَّ بعزِّ الإسلام، واصبغ أممنا بصبغتك التي لا أحسن منها، ومن أحسن من الله صبغة.

هل نحن مسؤولون أن نعمل وكفى؟

أم الواجب علينا طلب أحسن النتائج لأعمالنا؟ واتخاذ الأسباب لذلك؟ ودراسة المعوِّقات؟ ثم التقويم طلبا للتحسين؟

الحقُّ، أنَّ المسلم المعاصر يعاني من مفارقة عجيبة تتمثل في:

- معرفته بالمقياس النظري، واستخراجه للنتائج من مقدِّمات محدَّدة، وصياغته ذلك في خطب، أو كتب، أو مقالات... تبدأ غالبا بالكلمات وتنتهي بالكلمات.

- جهله بالمنطق العمليِّ، وعجزه عن

استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معيَّنة.

والناقد لوضعنا الراهن يسجِّل العجز والشلل، وانعدام الفاعلية، في مستوى الأفراد والجماعات.

يقول مالك بن نبي في هذا الشأن: «ولقد يقال: إنَّ المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول: إنَّه يتكلَّم تبعاً لمبادئ القرآن؛ لعدم وجود المنطق العمليِّ في سلوكه الإسلامي... فنحن حالمون ينقصنا المنطق العمليُّ».

ولا أدلَّ على هذا الحكم من أنَّه لا يوجد

بلد عربيٌّ واحد ضمن قائمة البلاد الصناعية، وأنَّ مجمل ما تنتجه الدول العربية مجتمعه لا يتعدَّى الواحد في المائة من النتاج العالميِّ، في كثير من مجالات الصناعة، وفي بعضها الآخر يعادل الصفر.

إنَّ مصطلح التقدُّم من المصطلحات التي لا تفسَّر تفسيرا واحدا؛ ذلك أنَّها تختلف من فرد لآخر، ومن بلد لآخر، ومن زمان لآخر؛ والغالب في الناس قصر التقدُّم في المجال الماديِّ التكنولوجيِّ دون سواه من المجالات الحيوية للحياة. فهو في نظرهم مرادف لمصطلح المدنية.

أمَّا ماليزيا — البلد المسلم المتقدِّم — فقد صاغت مصطلح التقدُّم صياغة شاملة، مصبوغة بصبغة الله تعالى، وذلك ضمن تحديدها لرؤيا ألفين وعشرين.

فرؤيا عام 2020، كما يوضِّحها مهندس التنمية الماليزية، محمد مهاتير، هي: «أن

نكون في عداد الدول المتقدِّمة عندما يحين ذلك التاريخ».

وكان لزاما عليه أن يعرِّف معنى التقدُّم في هذه الرؤيا، فقال: «عند صوغنا لرؤيا 2020 كان علينا أن نفسِّر ماذا نقصد بـ"**بلد متقدِّم**". هل يعني هذا ببساطة أنَّ دخل الفرد لا يقلُّ عن 16000 دولار أمريكي، أو أنه يعني أيضا الاستقرار وقيماً ثقافية راسخة؟

يجب أن تراعى كلُّ هذه العوامل، ولكن من الواضح أنَّ الغنى وحده لا يعني تقدُّما. إذ لا يمكن لدولة أن تكون متقدِّمة حقيقة إذا كان لديها المال بدون التكنولوجيا. والمملكة العربية

السعودية خير مثال لهذا. فقد جعل البترول منها دولة غنية جدًّا، لكن لا يمكن أن يشار إليها كدولة متقدِّمة على ذلك الأساس وحده. وحسب تقييمنا فإنَّ أيَّة دولة لا تصبح دولة متقدِّمة إذا كانت غنية ولديها التكنولوجيا ولكن تنقصها **القيم الأخلاقية**. هناك مجتمعات غربية كثيرة على سبيل المثال منفسخة أخلاقيا... بالنسبة لنا، هذا ليس تقدُّما. **ينبغي المحافظة على القيم الثقافية والأخلاقية، فنحن لا نريد أن نكون بلداً غنيا فحسب**».

فهو بهذا النصِّ **يصبغ التقدُّم بالقيم** والأخلاق، وما القيم سوى المبادئ المبنية على

أسابس رضا الله تعالى، والعمل وفقا لتقوى الله، وإخلاص النية له وحده، وكلُّ هذا يجمل في عبارة واحدة هي: صبغة الله.

وشتان بين دول عربية انسلخت من هذه الصبغة، ورنت للتقدُّم بعيدا عن سبيل الله، فخابت وخيَّبت، وضاعت وضيَّعت؛ وماليزيا التي لم تتخلَّ عن سند الله، فحقَّقت قفزة نوعية في التطوُّر، فتحوَّلت من بلد متخلِّف ونام، إلى بلد متطوِّر ورائد.

فما أحوج بلادنا الإسلامية إلى من يصبغ مسيرتها بصبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة.

صبغة في الجنة وصبغة في النار

لن يغادر مفهومُ الصبغة الإنسانَ حتى بعد موته. ففي يوم النشور والجزاء، سوف لن ينتفع إلاّ ما كان لله، أمّا ما كان لغيره فيذهب هباء منثورا، وقد أخبرنا رسول الرحمة محمد صلى الله عليه وسلّم بصبغة حسية مادية ستكون يوم القيامة، فقال:

«يؤتى بأشدّ الناس كان بلاء في الدنيا من أهل الجنة. فيقول الله: اصبغوه صبغة في الجنة. فيصبغ فيها صبغة فيقول الله: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قطُّ أو شيئا تكرهه؟ فيقول: لا وعزّتك، ما رأيت شيئا أكرهه قط،

ثم يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من أهل النار فيقول: **اصبغوه صبغة في النار، فيصبغ فيها** فيقول: يا ابن آدم، هل رأيت قطُّ قرَّة عين؟ فيقول: لا وعزَّتك ما رأيتُ خيرا قط».

فليحرص كلُّ مسلم أن يصبغ يوم القيامة بصبغة في الجنَّة، حتى وإن كان ممن يعاني من فقر، أو مرض، أو ذلٍّ، أو إذاية لا يستطيع ردَّها، وهو مع ذلك يجتهد في الطاعة والعبادة كما يريد الله تعالى له.

وليحذر كلُّ منَّا أن يضيِّع الإيمان والعمل، فيشقى بصبغةٍ في النار، ثم يكون بعدها مُهانا أبدا، حتى وإن كان اليوم ينعم بالخيرات، ويرتع في المتع والملذَّات.

أحمد يسين: الواثق في الله

من مظاهر صبغة الله في عمل الفرد، أن تكون ثقته في الله مطلقة، فيعتقد أنَّ ما أراده الله سيكون، وما لم يرده لن يكون.

وفي هذا المعنى نقرأ هذه الواقعة:

"تخرَّج أحمد يسين في مدرسة فلسطين الثانوية، وتطلَّعت نفسُه إلى العمل شأن كثير من الشباب الفلسطيني في ذلك الوقت، وهو الأعرج المعوق، فكان ميدان العمل الذي يغري الشباب هو التدريس؛ إمَّا في المدارس الحكومية، أو في مدارس الغوث، وكانت هذه الأخيرة أكثر إغراء، للامتيازات المتعدِّدة للمدرِّسين.

ولم ينل أحمد يسين منصبا في وكالة الغوث؛ لأنَّ لجنة التحكيم والمشرفين شيوعيون، أمَّا هو فعُرف بالورع والتقوى، والصلاح والريادة الإيمانية، فلم يبق أمامه إلاَّ المدارس الحكومية.

فتقدَّم الشاب بطلبه لمدير التعليم، وعرض على اللجنة المحكَّمة.

ورأت اللجنة شابًّا متفوِّقا — لبقا ذكيا قادرا على العطاء — ولكنَّه أعرج! وأرادت أن تبرهن على نزاهتها، وهي اللجنة المعتادة على السمسرة والرشوة، فأدرجت اسم الشيخ في الكشف المرفوع إلى الحاكم الإداري العامِّ، ليبدي الرأي فيه، ولكن بطريقة تمنعه من

التعيُّن... فكتبت فيه العبارة الآتية: «قدراته ممتازة، درجاته مرتفعة، ومتفوق؛ لكنَّه أعرج!».

وإذا أراد الله شيئا هيأ له الأسباب، فقد

تركَتْ هذه العبارة في نفس الحاكم الإداري العام أثرا لا يمحى: إذ كان ولده الصغير الحبيب إلى نفسه قد ولد أعرجا!!.

فصاح معلِّقا بالدارجة: «وإيه يعني أعرج؟ يعني ما يشتغلش، يعني يموت من الجوع!»

وأشَّر بقلمه الأحمر أمام اسم أحمد يسين عبارة: "يعيَّن". ثم أمر بتعيين الباقين، الذين رشَّحتهم اللجنة.

إلى هنا تبدو الواقعة منطقية، ولكنَّ تمام فصولها يبيِّن قيمة الثقة في الله، وأثره على تعيين أحمد يسين، وهو كالآتي:

"في صبيحة يوم مقابلة اللجنة، لقيه أحد أصحابه، وهو ذاهب إلى الاختبار، قبل الموعد بساعتين، وهو يغوص برجليه في الرمل، فيسقط حينا على الأرض، ويساعده أحد المارَّة حينا آخر.

فقال له: «إلى أين يا أخي أحمد؟»

فلمَّا عرف صاحبه وجهته، أردف قائلا: «وهل تتصوَّر أنَّ اللجنة ستوافق عليك؟!، وأنت تعرف سمعتها السيئة، واعتمادها على الرشوة والمحسوبية؟. يا أخي الكريم، أرى أن

توفَّر على نفسك شقاء الرحلة، وتعود من حيث أتيت».

فابتسم أحمد وهو واقف يترنَّح، يمينا وشمالا، على أصابع قدميه.. وقال: «يا أخي، وهل تتصوَّر أنَّني ذاهب إلى اللجنة لكي أستعطفها؟! لا والله، فأنا مسلم، وأثق أنَّ الله إذا أراد لي التعيين، فلن يتمكَّن بشر من قطع رزقي.. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعَدون، فوربِّ السماء والأرض إنَّه لحقٌّ مثلما أنَّكم تنطقون**﴾.. وهل فاتك حديث الرسول عليه السلام لابن عباس: "... **واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، ما نفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك.. واعلم**

أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن يضرُّوك بشيء، ما ضرُّوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف"؟ والله إنَّني واثق من أنَّ الله تعالى لن يخيِّبني.. فأنا متوكِّل على الله، وماض في سبيلي!»

وقد كان ما كان، من أمر اللجنة والحاكم العام، كما سبق ذكره. وكان ما كان من بروز أحمد يسين في حياته، قائدا ومجاهدا، هزَّ أركان دولة إسرائيل، وأذاقها العلقم، في حين عجزت فيه الحكومات والدول المتعاقبة، وهي البعيدة عن صبغة الله.. فمات شهيدا، راضيا مرضيا، رحمه الله تعالى.

جيفري لانغ وصبغة الله

في كتاب للعالم الرياضي الأمريكي "جيفري لانغ" بعنوان: "حتى الملائكة تسأل" نقرأ فقرات عن لحظات دخوله في الإسلام، وكأنَّه اقتطعها من رصيد الخلود، ليضعها جواهر في قلوب الناس، علَّها تنبت الإيمان فيها، وتسمو بهم في علياء اليقين. وهي أنموذج رائع للاصطباغ بصبغة الله تعالى بعد مرحلة من الكفر والإعراض عنه. وهي — ولا شكَّ — أمتع ما يعيش الإنسان المسلم، حين تناله هداية الله ورحمته.

قال:

وقفتُ في منتصف الغرفة، ثمَّ توجَّهتُ نحو ما اعتقدتُ أنَّه القبلة في مكَّة. نظرتُ خلفي على الباب لكي أتأكَّد من أنَّني أوصدتُ باب شقَّتي أم لا. وبعد أن تأكَّدتُ من أنَّ الباب كان مقفلا، يمَّمتُ شطر القبلة ثانية، بعد أن سوَّيتُ من وقفتي. أخذتُ نفَساً عميقا، ثمَّ رفعتُ يدي وهي مفتوحة حَذاء وجهي إلى أن لامستْ شحمةَ أذنيَّ، ثمَّ همستُ بصوت أجشَّ: "**الله أكبر**". كان أملي أن لا يسمعني أحد، حيث شعرتُ ببعض القلق، ذلك أنَّني كنتُ أشعرُ أنَّه لا بدَّ أنَّ أحداً ما يتجسَّس عليَّ. ثمَّ إنَّني تذكَّرتُ أنَّ ستائر غرفتي كانت مفتوحة، ثمَّ فكَّرتُ في نفسي قائلا: "ماذا

سوف أقول إن رآني أحد الجيران وأنا على هذه الحال؟". توقَّفتُ عمَّا كنتُ أفعله، ثمَّ توجَّهتُ إلى النافذة، ونظرتُ نحو الخارج فيما إن كان هناك أحد يراقبني. ومن حسن حظِّي أنَّه لم يكن هناك أحد، ثمَّ إنَّني أغلقتُ الستائر بحذر، ثمَّ عدتُ إلى منتصف الغرفة.

عدتُ إلى ما كنت عليه وشرعتُ بالصلاة قائلا: "الله **أكبر**". قرأت بالعربية بفاتحة الكتاب، وبسورة قصيرة، بصوت لا يكاد يُسمع، وبغمغمة لا يكاد يفهمها عربيٌّ. ثم كبَّرتُ بصوت هادئ للركوع وأنا أضع يديَّ على ركبتي. **شعرتُ بالحرج لأنَّني لم أركع**

في حياتي لأحد. كنتُ سعيداً لأنَّني كنت وحدي. في ركوعي قلتُ: "سبحان ربِّي العظيم" عدَّة مرَّات. ثمَّ اعتدلتُ وأنا أقول: "سمع الله لمن حمده... ربَّنا ولك الحمد".

شعرتُ بدقَّات قلبي تتسارع، وقلقي يتزايد، بينما كنتُ أهوي للسجود مكبِّراً: "الله أكبر". تسمَّرتُ في مكاني وأنا أحدِّق في البقعة حيث المكان الذي سوف أضع فيه جبيني للسجود على الأرض. لم أستطع السجود، ولم أستطع الانحناء كي أضع أنفي على الأرض، كعبد يعفِّر وجهه بالتراب أمام سيِّده. شعرتُ وكأنَّ ركبتيَّ قد أحاط بهما سوار

يمنعهما من الانحناء. **وشعرتُ بالخجل من الانحناء بذلٍّ**. ثمَّ إنَّني تخيَّلتُ أنَّني أقوم بذلك أمام أصدقائي وأصحابي، وكيف سيكون موقفي أمامهم، وكيف سيكون موقفهم تجاهي، وهجاؤهم لي، وضحكهم عليَّ؟! تصوَّرتُ كم سأبدو سخيفا أمامهم، وكأني بأحدهم يقول: "يا لجفري المسكين، لقد أصبح ابن سان فرانسيسكو مهووسا بالعرب، أليس كذلك؟".

ثمَّ إنَّني دعوتُ الله قائلا: **"ساعدني اللهمَّ لكي أسجد لك"**.

أخذتُ نفَساً عميقا، ثمَّ **أرغمتُ نفسي**

على النزول إلى الأرض. جثوت على أربع، ثمَّ إنَّني بعد تردُّد قصير دفعتُ بوجهي ساجداً فوق السجادة. طردتُ جميع الأفكار من عقلي، ثمَّ ردَّدتُ قائلا بطريقة آلية: "سبحان ربي الأعلى" ثلاثا. ثمَّ كبَّرتُ وجلستُ على كعبيَّ. حاولتُ طرد وساوسي، ثمَّ كبَّرتُ للسجود، وسجدتُ ثانية. ثمَّ كبَّرتُ لأنهض واقفا. قلتُ في نفسي: "بقي ثلاث ركعات، وأنهي الصلاة". كان عليَّ أن أتصارع مع عواطفي وكبريائي لأكمل الصلاة، ولكن في كلِّ ركعة كان الأمر يسهل عليَّ لدرجة أنَّني شعرتُ بالسكينة في السجدة الأخيرة. ثمَّ

إنَّني قرأت التشهُّد، ثمَّ سلَّمتُ على اليمين ومن ثمَّ على الشمال.

لقد انقضى الأمر، ولكنني بقيتُ جالسا أسترجع المعركة التي مررتُ بها للتوِّ. شعرتُ بالحرج؛ لأنَّني تصارعتُ مع نفسي لكي أنهي صلاة واحدة. طأطأتُ رأسي، ثمَّ دعوتُ: **"اللهمَّ اغفر لي تكبُّري وغفلتي. فلقد جئت من مكان بعيد، وما زال أمامي شوط كبير لكي أقطعه"**.

في تلك اللحظة بالذات مررتُ بتجربة لم أعهدها من قبل، ولا يمكن لي أن أصفها في كلمات. وكلُّ ما أستطيع قوله هو أنَّه سَرَت

في جسدي موجة من البرد أخذت تشعُّ في مكان ما من صدري، وكانت قوية لدرجة أنَّني شعرتُ بالرعب في بداية الأمر، ثم انتابتني قشعريرة. ولم يكن الأمر مجرَّد شعور جسديٍّ، بل إنه تجاوز ذلك إذ غمرني في حالة من العواطف الغريبة أيضا. شعرتُ وكأنَّ الرحمة قد حلَّت بي لتغمرني في حالة من الروحانية والسكينة. بدأتُ بالبكاء ولم أكن أدري لماذا. انهمرت الدموع فوق وجنتي، ووجدتُ نفسي أبكي بلا توقف. وكنت كلَّما ازداد بكائي شعرت بقوَّة هائلة من الرقَّة والعطف تعانقني. لم أكن أبكي من ذنب — ربَّما كان

عليَّ أن أبكي منه — أو من خجل أو من فرحة، بل كان الأمر وكأنَّ سدًّا كبيراً قد انهار ليفيض من مخزون هائل من الخوف والغضب.

وبينهما أكتب هذه الكلمات تساءلتُ في نفسي كيف أنَّ رحمة الله ومغفرته تتجاوز مسألة غفران الذنوب لتشتمل على تطهير النفس وغرس السكينة فيها. مكثت جاثيا على ركبتيَّ ورأسي بين يديَّ وأنا أنتحب لبعض الوقت. وعندما توقَّفت عن البكاء أخيراً، كنتُ مرهقا تماماً. وأمَّا التجربة التي مررتُ بها فقد كانت غريبة جدًّا بالنسبة إليَّ، وكانت عامرة بالمشاعر العاطفية، الأمر الذي لا أستطيع

وصفه في كلمات، كما أنَّه لا ينبغي لي أن أخبر أحدا عن ذلك الآن. لقد كان إدراكي لذلك كبيراً، **فقد كنتُ بحاجة ماسَّة إلى الله وإلى الصلوات.**

وقبل نهوضي من جلستي تلك دعوت الله دعاء أخيراً تلك الليلة، فقلتُ: "**يا ربِّ، إذا جنحتُ مرَّة ثانية نحو الكفر بك في حياتي، اللهمَّ أهلكني قبل ذلك، وخلِّصني من هذه الحياة. إنَّني يا ربِّ أجد الحياة صعبة بنقائصي وعيوبي، ولكن برغم ذلك لا أطيق العيش ولو ليوم واحد وأنا منكر وجودك**". اهـ.

أمَّا أنا، مؤلِّف هذا الكتاب، فأجد نفسي ضئيلة مقارنة إلى نفس جيفري لانغ، وأحقر صلاتي إلى صلاته، وأستحيي من الله تعالى؛ لأنَّني ولدتُ مسلما، وتعلَّمت الصلاة تقليداً، ولم أجد هذه الحلاوة التي وصفها المسلم الجديد، العالم التقيُّ: جيفري لانغ.

وأشدُّ ما أتحسَّر عليه هو: دراستي في تخصُّص العقيدة في الجامعة، ذلك أنَّ البرامج والمقرَّرات كانت خالية من الإيمان، مثقلة بعلم الكلام، تخاطب العقل في اعوجاجه، وتحنِّط القلب في رقَّته ولطافته، وتتنكَّر للفكر السويِّ المتَّزن الحكيم، لتحلَّ محلَّه فكرا أعوج أعرج لا يقيم الحقَّ بل يحطِّمه، ولا يزهق الباطل بل

يعليه ويشمخ به، كلُّ ذلك بسبب الخلافات والصراعات بين المذاهب، والمنحى التكفيري بين الفرق الإسلامية، قديمها وحديثها.

ولذلك أدعو الله تعالى اليوم:

"اللهمَّ اغفر لي ذنوبي، وكلَّ وقت ضيَّعته في علم الكلام عوض الإيمان، واغفر لي قصوري وتقصيري، واغرس شجرة اليقين في قلبي، وفي قلب جميع المؤمنين، كما غرستها في قلب أحبابك وأوليائك، ومنهم أخانا المؤمن: جيفري لانغ".

آمين.

الفهرس

كيف تقرأ هذا الكتاب 07

وعي الذات 11

قياس الأعمال 15

ورهبانية ابتدعوها 19

ومن أحسن من الله صبغة 24

العبادة والصبغة 26

الإخلاص والصبغة 29

الزمن الصبغة 32

التعميد بمقياس العصر 37

لقوم يتفكرون 40

الدعاء والإنتاج 42

الصبغة والروتين اليومي 45

العمل الباطل 49

كرماد اشتدَّت به الريح 51
كسراب بقيعة 56
...فما له من نور 61
العمل شكرا..... 64
علم الكلام يعطل العمل 68
عمل الإنسان وعمل الآلة 73
ما أشبه اليوم بالبارحة 76
المنطق العملي 80
التقدم المصبوغ بصبغة الله 83
صبغة في الجنة وصبغة في النار..... 87
أحمد يسين الواثق في الله 89
جيفري لانغ وصبغة الله 95

تعالیق وملاحظات

Comments

هذا الكتاب :

الدين نظام إلهي شامل، حمله الأنبياء إلى البشرية جمعاء، بغرض تحقيق السعادة في الدنيا، والعاقبة الحسنة في الآخرة ...

فكلُّ دين، مالم يحرَّف، هو صلاح مطـلـق وخير عميم، وكلُّ ما ناقض الدين، من أفكار ونظريـات، هو فساد مطلق وضلال مبين ...

فانظر إلى حياتك، أيهـا القـارئ العزيـز ، وتـأمـل حركتـك وسكونـك، وشغـلك وفراغـك، وقولـك وعملك ...   واسأل نـفسك بصراحــة، مستــعيــنا بفقرات هذا الكتاب:

هل كلُّ أولئك مصبوغ بصبغة الله؟

ردمك ISBN 9947 - 817 - 01 - 6
جانفي 2006 / محرم 1427
مكـتب الـدراسـات العلـمية
تصميم جابر
ص. ب 160 - 5 جويلية باب الزوار الجزائر العاصمة 16112